٩

« ملحمة المعذبين فى الله ! »

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣
عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦
وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ
۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ ﴾

[سورة الرحمن ١ – ١٣]

«مكة» وجو التربص الخانق لا يزال مخيمًا عليها وعلى من حولها.. لاتزال رؤوس الكفر من قريش علـى عجزها عن فهـم وإدراك حقيقة ما أتى به محمد.. هذه أول مرة تصادفهم لغة خلاف اللغة التـى يعرفون.. الدعـوة الهادية تزحف بخطى حثيثة مخاطبة الوجدان والعقول والقلوب، بلغة غير اللغة التى تعرفها وتجيدها قريش: لغة القوة والبطش والاستعلاء!!.. ما بال محمد وصحبه من الفقراء والمسـتضعفين يجدون من قبول الناس ما عجزت عنه قريش بمكانتها ومالها وجبروتها.. يطيـش صواب قريش ويزداد سـعيرها.. تتعقب المؤمنين بالعذاب والنكال.. لا تترك مستضعفًا ولا شريفًا.. تلاحق بشوكتها وبطشهـا وجبروتهـا – العبيد والمستضعفين، وتميل على شباب الأشراف الذين أسلموا بالحيلة والاسترضاء تارة، وبسلطة الآباء والكبار تـارات.. بالأمس اجتاحت أبا ذر الغفارى يوم اجترأ وأعلن إسـلامه، وهى لا تنى عن ملاحقـة النبى بإعناتهـا وإيذائها.. لم ينج من شـطحاتها أبناء الأشـراف.. هـا هو عثمان ابن عفـان قد احتمل من بطـش عمه الحكم بن أبى العاص مـا احتمل من قيود وحبس وارتهان وتجويع.. وها هو سـعد بن أبـى وقاص يتصبر علـى إضراب أمه عن الطعام طلبًا للموت أو يرتد

عـن دين الله.. وهـو لا يريـم، وهـا هـو بلال قـد تعـرض لما تعـرض له من عـذاب وتنكيل حتـى أعتقه أبو بكر وأطلقه.. تتحدث مكة كلها بملحمـة المعذبين فـي الله.. ويتناقلون ما يجرى فـي بطحـاء مكة، وفى بيوت الأشـراف أيضًا، مـن أهوال الإيذاء والتعذيـب.. بلال وما حدث معه، وعمار وأبوه ياسـر وأمـه سميّة.. وخباب ابن الأرت وصهيب بن سنان.. حتى الأشراف: سعد بن أبى وقاص، وخالد بن سعيد بن العاص وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام ومصعب ابـن عمير.. لم تعدم قريش وكبراؤها الـوسـائل لتهديدهـم والتضييق عليهـم وإيذائهـم وترويعهـم ليرجعـوا عـن الإسلام!!»

* * *

«رهط من أشراف قريش، فيهم سعيد بن العاص، مجتمعون يتسامرون بظاهر الكعبـة.. يلحـق بهـم أبو سفيان، – فيبادر سعيد بن العاص ساخرًا»..

أبو سفيان : (ساخرًا) تجلس هنا يا سعيد وابنك خالد قد صبأ؟!

سعيد بن العاص : (مرددًا فى دهشة مشوبة بالقلق) صبأ؟!!

أبو سفيان : (مستهزئًا) كأنى بك لا تعرف؟!!

سعيد : (مستحثًا) قل يا أبا سفيان.. قل.. ماذا تعنى؟..

أبو سفيان : لقـد تـرك ابنك خالد ديننـا ودين آبائنـا وأجدادنا وتابع محمدًا ..

سعيد : أتسخر منى يا أبا سفيان؟

أبو سفيان : واللات والعزى لم أقل لك إلا صدقًا..
(مستأنفًا) اذهب لابنك واسأله..

سعيد : تبًّا لـه، سأفعـل.. وويل له إذا كان قد فعـل ما تقـول..
(وهو يبتعد) ويل له.. ويل له ..

* * *

«فى منزل سـعيد بن العاص» – يدخل سـعيد ثائـرًا مهتاجًا – يصادف ابنـه خالدًا.. فينتهره ويهـم بضربه بمقرعة فى يـده فتحول بينهما أم خالد بنت خباب بن عبد ياليل الكنانية..

سعيد بن العاص : (غاضبًا) أصحيح ما سمعت يا خالد؟..

خالد بن سعيد : (هادئًا) وماذا سمعت يا أبتاه؟..

سعيد : (غاضبًا) أصحيح أنك اتبعت محمدًا وأنك تسمعه يعيب آلهتنا؟..

خالد : أما تريد أن تعرف يا أبتاه؟!

سعيد : فما تريد أن تسمعنى يا لكع؟!

خالد : رأيـت يـا أبتاه فى منامى أننى واقف على شـفير لنار مهولة ورأيـت فيما يرى النائم كأنـك يا أبتاه تدفعنى فيها.. ورأيت رسول الله آخذًا بحقوىّ (بخصرى) حتى لا أقع فيها ففزعت من نومى ، وأحلف بالله يا أبتاه أن هذه لرؤيا حق..

سعيد بن العاص : (سـاخرًا يحاول كتم غضبه وثورتـه) مرحى مرحى.. فماذا بعد يا لكع؟!

خالد بن سعيد : قد لقيت أبا بكر بن أبى قحافة، فذكرت له الرؤيا التى شاهدت، فطمأننى إلى أن الله قد أراد بى خيرًا، ودلنى على رسول الله.

«سعيد بن العاص يترقب مغيظًا يكتم ثورته حتى يسمع..»

خالد : (مستأنفًا) لقيته وهو بأجياد، فقلت له: يا محمد إلام تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وخلع ما أنا عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ولا يدرى من عبده ومن لم يعبده.

سعيد : (ساخرًا وقد انفجر غضبه) مرحى مرحى..

خالد : (يمضى فى ثبات متجاهلا ثورة أبيه) فشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

«سعيد بن العاص يهجم على ابنه خالد بالمقرعة حتى انكسرت على رأسه.. وأم خالد تحاول كفه بيد أن سعيدًا تتزايد ثورته..

سعيد : أتتبع محمدًا يا ابن السوء، وأنت ترى خلافه وقومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم؟!

خالد بن سعيد : (ولم يزايله هدوؤه) إنه والله لصادق، ولقد آمنت به واتبعته.

سعيد بن العاص : (وقد ازداد غضبه) ويل لك.. وتكررها أمامى؟..

(وهو يضربه بعصاه) خُذْ يا صابئ.. خُذْ..

خالد بن سعيد : (فى ثبات وإباء والضرب لا يزال منهالاً عليه).. قد صدق والله واتبعته.. إنه لصادق وإنى به لمؤمن.. إنه والله لصادق.. وإنى به لمؤمن..

«ينصرف سعيد مردداً شتائمه لايلوى على شيء... يصدر أوامره قبل المغادرة بحبس خالد ومنع الطعام والشراب عنه..»

* * *

«بعد يومين فى مجلس أشراف قريش بظاهر الكعبة».

أبو سفيان : (متلهفًا) ما خبر خالد يا سعيد؟.. (مستأنفًا) أتراه قد رجع لديننا؟

سعيد بن العاص : لا تسخر يا أبا سفيان، قد واللات أذقته من صنوف العذاب ألوانًا. ولكنى لا أرى إلاّ أن محمدًا قد سحره.. (مستأنفًا).. لقد ضربته، وحبسته، ومنعت عنه الطعام والشراب.. ولكن لا جدوى!!

أبو سفيان : وماذا أنت فاعل؟.. أستتركه وما يريد؟!

سعيد بن العاص : (مغتاظًا) لا واللات والعزى.. لآخذنّه إلى رمضاء مكة.. ولأجبرنّه على العودة لديننا..

* * *

«فى رمضاء مكة.. سعيد بن العاص فى نفر من رجاله، يضربون نجله خالدًا الذى بلغ به العذاب كل مبلغ!!».

خالد بن سعيد : (ينادى وهو يتأوه) ماء.. ماء..

سعيد بن العاص : هيه.. ماذا تقول الآن فى صاحبك محمد والدين الذى جاءكم به؟!

خالد بن سعيد : (وهو يغالب الألم) خير نبى، وخير دين..

سعيد بن العاص : (وقد ازداد ثورة) سأدعك تموت جوعًا وظمأً..

خالد بن سعيد : ولكنى يا أبتاه لن أدع الإسلام لشىء..
(يغالب الألم) سأحيا به وأموت عليه..

سعيد بن العاص : (يائسًا نافد الصبر).. إذن فاغرب عنى يا لُكَع..
اغرب عنى.. فواللات والعزى لأمنعنك القوت والميراث..

«يقترب رجال سعيد بن العاص، يفكون وثاق خالد.. ينهض مبتعدًا..»

خالد بن سعيد: (وهو ينصرف مردِّدًا) والله خير الرازقين..

* * *

«أزقة مكة.. على مرأى البصر من الصفا والمروة.. جمهرة من الناس تتابع فتى شابًا أوثقت يداه إلى عنقه.. يدفعه البعض، ووراءه امرأة تدمدم وتسبه.. بينما سفهاء صبيان مكة يتابعونه بصياحهم وسخرياتهم... »

«مسعود بن خراش يخرج من بين الصفا والمروة.. يصادف أحد المكيين فيستوقفه..».

مسعود بن خراش : (للمكى وهو يشير إلى الفتى المقيد) من الرجل؟

المكى : طلحة بن عبيد الله.

مسعود : وما شأنه؟

المكى : صبأ! وتابع محمدًا..

مسعود : ومن هذه التى تلاحقه وتسبه ؟

المكى : إنهـا أمه الصعبـة بنت الحضرمى.. إنهـا لا تكف عن إيذائـه منذ أسـلم، تريده أن يرجـع إلـى دين آبائـه، ولكنه صابر لا يريم..

* * *

«دار الزبير بن العوام بن خويلد بمكة.. الزبير فـى نحو الخامسـة عشـرة.. عم الزبـير واقف بصحن الـدار وقد أمر بالزبـير فلفوه فى حصير ودخن عليه بالنار تزهق أنفاسه أو تكاد.. يناديه العم مغلولا..».

العم : (مهددًا) اكفر برب محمد، أدرأ عنك هذا العذاب.

الزبير : لا. والله لا أعود للكفر أبدًا ..

«يتواصل مشـهد التحريق والعـذاب، ولكن العـم لا يبلـغ مـن الزبير شيئًا!!»

* * *

«خناس بنت مالـك أم مصعب بن عمير فى دارهـا بمكـة.. يدخل عليها قريبهـا عثمان بن طلحة..».

عثمان بن طلحة : (صائحًا) يا أم مصعب.. يا أم مصعب..

خناس بنت مالك : (قلقة) عثمان؟!.. خيرًا.. ماذا وراءك؟!..

عثمان بن طلحة : مصعب..

خناس بنت مالك : (جزعة) مصعب؟!.. أوقع له مكروه؟! أخبرنى..

عثمان بن طلحة : قد صبأ ورب الكعبة.. قد صبأ مصعب..

خناس بنت مالك : صبأ؟!.. ماذا تقول.. ولدى مصعب؟!!

عثمان بن طلحة : ترك دين آبائه وأجداده، وتابع هذا المدعى محمدًا!..

خناس بنت مالك : ماذا تقول.. ولدى مصعب لا يفعل ذلك.. إنه طوع بنانى..

عثمان بن طلحة : إنه يتردد على دار ابن الأرقم حيث يجتمع محمد بأتباعه وأصحابه؟!

خناس بنت مالك : (مرددة فى دهشة) دار ابن الأرقم؟!

عثمان بن طلحة : قد رأيته لتوى خارجًا من هناك.. اسأليه يا خناس ، فلا أظنه يستطيع الإنكار..

* * *

«بالدار.. يدخل مصعب بن عمير على أمه خناس ، فلا تكاد تراه حتى تبادره..».

خناس بنت مالك : (بقلق كأنها تكذب نفسها) ما هذا الذى سمعته يا ولدى؟!

مصعب : ماذا سمعت يا أماه؟..

خناس بنت مالك : أصحيح أنك صبأت يا ولدى؟!..

مصعب : (منكرًا) صبأت؟!!!

خناس بنت مالك : صحيح إذن ما سمعته من أنك تختلف مع أصحابه إلى دار ابن الأرقم.. (مهددة) الويل لك..

مصعب : هدئى روعك يا أماه.. والله ما فعلت إلا الخير..

خناس بنت مالك : (مرددة) الخير؟!.. أى خير يا عاق.. واللات والعزى إن لم تعد إلى دين آبائك ما كنت لى ابنًا ولا كنت لك أمًا..

مصعب : أنت وما تريدين يا أماه..

خناس بنت مالك: أتعصى أمرى يا مصعب؟..

مصعب : ما كنت لأرتد بعد أن هدانى الله..

مصعب : ما كنت لأرتد بعد أن هدانى الله..

خناس بنت مالك : (متوعدة).. أتخرج عن طوعى؟!

مصعب : ما خرجت عن طاعتك يا أماه.. ما فعلت سوى أنى آمنت بالله الواحد الأحد.. أليس الأجدر بك أن تثوبى إلى الحق وتؤمنى بخالق السموات والأرض ورب العالمين ؟!

خناس بنت مالك : تبًّا لك من ولد عـاق.. أتريدنى أن أصبأ أنا الأخرى؟!.. تبًّا لك؟!..

مصعب : شأنك يا أماه..

خناس بنت مالك : سأحرمك من نعمتى ، وسأمنع عنك مالى..

مصعب : ليست لى حاجة إلى مالك يا أماه..

خناس بنت مالك : (ثائرة) أهكذا ؟.. (صائحة فى خدم الدار) خذوه وقيدوه واحبسوه!

* * *

«بعد أيام.. وقد يئست أمه خناس من حبسه، وفكت إســاره.. بحى من أحيــاء مكة.. يمضى مصعب فى أسمال بالية ممزقة إلى دار الأرقم».

مكى : (لآخر بأحد أزقة مكة).. أترى هذا الفتى؟!

المكى الثانى : ما باله؟!

المكى الأول : أتصدق أن صاحب هـذه الأسمـال هو مصعب بن عمير؟!

المكى الثانى : فما فعل به ذلك.. عرفته يرفل فى الترف والنعيم!

المكى الأول : غضبت أمه عليه فقد صبأ.. (مستأنفًا) حبسته زمنًا، – فلما يئست منه أطلقته.. ولكنها قبضت عنه يدها!! واللات،

– لقد رأيــت مصعبًا هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ها هو ترك هذا كله حبًّا لله ومحمد.

* * *

«بيت أم أنمـار فـى مكـة.. امـرأة من خزاعة، كانت قد اشـترت خباب بن الأرت الذى خُطف وهـو غلام من قبيلته بنى سـعد وبيع فى مكة، فاشـترته.. وعـاش فى بيتها سـنوات يخدمها ويعمل بالحدادة.. تأتيها الأخبار من قريش بأن عبدهـا خبابًا قد صبأ وتابع محمـدًا وآمن به.. تستشـيط غضبًا، فتأمر غلمانها بربط خباب إلى عمـود من أعمـدة البيت.. تأمر بالكور فتشـعل فيـه النيران، ويلقى فيـه بالحديد حتى يحمر، فيبادرون به إلى ظهر خباب يكوونه بالحديد مرة بعد مرة ، ويشـتدون عليـه بالعذاب .. يلصقون ظهـره العارى بالرّضف حتـى ذهب لحمه!!.. لا يدعونـه إلا إذا غاب عـن الوعى ، فإذا أفاق لاحقوه بالعذاب مرة أخرى!!»

«النبى فى بعض صحابته يتوسـد ببُرد له فى ظل الكعبة.. يأتيه خباب وقد تقرح جسـده بما يشبه البرص من جراء التحريـق والكى بالحديد.. يبدو التأثر البالغ على النبى مـن حالـه.. خباب بادى الجزع والهم والألم.. والنبى عليه السـلام يحاول أن يواسيه ويخفف عنه..»

خباب : يا رسول الله ألا تستنصر لنا ؟.. ألا تدعو الله لنا فيخفف عنا عذابنا، ويريحنا من موالينا؟!

النبى : (داعيًـا إلى الصبر) قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الرجل، فيحفر لـه فى الأرض، ثم يجاء لـه بالمنشار، فيجعل فوق رأسه، ما يصرفه ذلك عن دينه! وقد كان ليُمشط أحدُهُم بأمشـاط الحديـد ما دون عظمـه مـن لحـم وعصـب، ما يصرفـه ذلك عـن دينه، ويوضع المنشـار على مفرق رأس أحدهم فيُشـق! ومـا يصرفه ذلك عن دينه! (يسـتأنف مواسـيًا ومشـجعًا) وليظهرنّ الله تعالى هـذا الدين حتى يسـير الراكب مـن «صنعاء» إلى «حضر موت» لا يخشـى إلا الله عز وجل والذئب على غنمه! ولكنكم تعجلون!!

«يهدأ خباب متصبرًا..»

«النبى يرفـع كفيه إلى السـماء داعيًا: اللهم انصر خبّابًا»

* * *

«حى من أحياء مكـة.. دور بنى عبد الدار.. لفيف منهم حول مولى لهـم يعذبونه يقـال لـه: «أبو فكيهة».. يأمـر بعضهم بأبى فكيهة ليقتاد فى قائلة النهار إلى رمضاء مكة..»

«أبو فكيهـة، بادى الوهـن والإعياء، ملقى فى البطحـاء.. يتناوب الرجـال ضربه.. القيظ بالـغ الحرارة.. يتفتق ذهـن أحدهـم عـن تقييد أبى فكيهة بالحديـد.. يبطحونه ويأتى بعضهم

بصخـــرة يضعونهـــا على ظهـــره.. لا يكفون عن جلـــده وضربه حتـــى يأخذ منهـــم التعب.. فإذا ارتاحوا استأنفوا!!».

أحدهم : (لأبـــى فكيهـــة) ألا ترجع عما أنت فيـــه، وتعود إلى دين الآباء والأجداد!!

أبو فكيهة : ما كنت بالذى يترك الله ورسوله بعد أن هدانى الله، لأرتد إلى عبادة أحجار لا تضـــر ولا تنفع!!

«يمضى مشـــهد العذاب، ولا يزيد أبو فكيهة عن أناته المزوجة بذكر ربه..».

* * *

«لفيـــف من المســـلمين بأحد شـــعاب مـــكة.. بينهـــم عبـــد الله بن مسعود..».

أحد المسلمين : (غاضبًـــا) أمـــا آن الأوان لنـــرد علـــى قريش مـــا تكيده لنا وللإســـلام.. لقد أعزنا الله بدينـــه.. ونحن على الحق وهم على الشرك والكفر..

مسلم ثان : صدقت والله.. مـــا ينبغـــى لنا أن نغضى عن غيهم بعد اليوم.

المسلم الأول : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط.. سوف يغيظهم تلاوة آياته البينات بين ظهرانيهم ..

المسلم الثانى : أصبت.. فَمَنْ رجل يسمعهموه؟..

عبد الله بن مسعود : أنا.. سوف أقرأ القرآن على أكبر جمع لهم..

المسلم الثانى : وما لك بذلك يا ابن مسعود؟!.. إننا والله لنخشاهم عليك.. تعلـــم أنهم طغاة لن يترددوا فى الانتقـــام منك.. إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه منهم إذا أرادوه.

عبد الله بن مسعود : (فى إصرار) دعونى فإن الله سيمنعنى..

* * *

«بجوار البيت العتيق.. جمع من قريش يتسامرون.. يقترب منهم عبد الله بن مسعود..».

عبد الله بن مسعود : (مبادرًا) يا معشر قريش.. يا أهل مكة.. اسمعونى..

«تتصاعد غمغمات وهمهمات قريش يتساءلون عما يريد».

عبد الله بن مسعود : (يتلو بعد برهة) بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [سورة الرحمن: الآيات: ١ ـ ١٣].

أحد القرشيين : (وقد أخذه العجب) ما هذا؟!..

قرشى ثان : ماذا يقول ابن أم عبد ؟..

القرشى الأول : لعله يتلو ما جاء به محمد ! ..

القرشى الثانى : هو ذاك.. أصبت.. إنه يتغنى بهذا الذى يزعمه صاحبهم..

القرشى الأول : تبًا له.. أيجرؤ على ذلك؟.. قوموا إليه نؤدبه على تجرئه علينا..

«يتكالب القرشيون على عبد الله بن مسعود، يوسعونه ضربًا وركلاً حتى أدموه، وألقوه خارج المسجد.. بيد أنه يعاود بإصرار

تلاوة ما كان يتلوه من آيات القرآن..»

* * *

«المسلمون فى مجلسهم.. يلحق بهم ابن مسعود وقد شج رأسه والدماء تغمر وجهه وأسماله».

المسلم الأول : (بقلق ظاهر) ما هذا الذى بك.. ما كل هذه الجراح التى نراها بوجهك وجسدك؟!

المسلم الثانى : تبًا لطواغيت قريش.. ألم نحذرك يا ابن مسعود.. هذا ما خفناه عليك!

عبد الله بن مسعود : ولكنى والحمد لله قد بلغت ما أردت.. لقد صدعت بينهم بآيات الله..

المسلم الثانى : (بترفق) لقد بلغ منك هؤلاء الأوغاد.. تبًا لهم.. هذا ما كنا نخشاه عليك!!

عبد الله بن مسعود : (بتؤدة وثبات) أبدًا والله.. ما كان أعداء الله أهون علىّ منهم الآن.. ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا.. حبًا فى الله..

* * *